



في فن التصوير

أو هل فسرت معنى مجهولاً؟ أو هل مهدت خطوة في سيل
غرض سام؟ أو هل ألفت بصيصاً ولو ضئيلاً من النور على
ظلام الحياة؟ أو هل أضافت نغمة ولو خافتة إلى موسيقى الكون؟
إذا التمسنا شيئاً من ذلك ووجدنا له أثراً يشير إليه أو لمسنا
صدى له في نفس المصور كان لنا أن نأمل من هذا الفنان شيئاً.
المصور العبقري كالشاعر العبقري كلاهما كالنبي المعجز
غرس الله في قلوبهم بذرة الخلود تجمع بينهم رابطة الروح
السماوي والنور الإلهي وهم يصدرون عن إيمان صادق ووحى
أمين وإن كان لكل وجهة يوليها وعالم يكشفه.

والصور الصادق قطعة من الحياة تهذب وتثقف، يرتاد
سبيله ملهماً ببصيرة سماوية وقلب دافق الاحساس مرهف،
ومهجة فياضة الشعور، ووجدان بالغ الدقة متته في اللطف، فهو
روح مجرد يطير في كل أفق، ويحوم في كل خميلة، ويرد كل غدير،
ويعتلي كل فن، ويدوم فوق كل منظر بهيج فيحيطه بفؤاد خفاق،
ويلتهمه بعين جديدة، ويحمله أشعة وظلالاً ويحمله روحاً بروح
تسجله للأبصار في أسلوب ناطق وخفي، ويحده بأطار من شعوره
وفيض إحساسه.

فاذا كان هذا قدر المصور الفنان الصادق الأمين. إنسان
بالغ النبل نقي الروح ذكي النفس عظيم السمو لزم أن يكون
أسلوبه الذي يضمه روحه نبيلاً على قدر نبلة سامياً على قدر
سموه، ولزم أن تكون موضوعاته التي يختارها لأداء فكرته
وحكاية قصته ولشرح عاطفته أو غير ذلك من الأغراض،
لزم أن تكون على قدر نبلة وسامية على قدر سموه؛ فالفنان الذي
يصور البعث والروحي أو الصلاة أو الحزن أو الحب أو الأمومة
وما يدخل تحت فصل الجمال الروحي أنبل من المصور الذي
يصور الحقد والدماغة أو التبذل والوحشية أو الرذيلة للاستمتاع
بتصويرها لا للنهي عنها. هذا تدور خواطره على مشاغل

يقف الانسان أمام صورة من الصور ويلقى عليها نظرة
عارضة عاجلة فيصدر في الحال حكمه عليها أعجب بها أم لم يعجب؟
أنالت من نفسه ارتياحاً؟ أسكن وجدانه إليها؟ ولماذا أعجب بها؟
ولماذا لم يعجب؟ وما هي العاطفة السكائمة التي تصدر هذا
الحكم بتلك السهولة لها أو عليها؟ أهو الذوق؟ وما هو الذوق؟
أهو العقل؟ وعلام يستند العقل؟ هذا ما نحاول شرحه في هذا
المقال متوخين الإيجاز في تناول موضوع التصوير بصفة عامة
لأنه فن واسع الأفق لا يحيط به مقال واحد ولا كتاب واحد.
ليس التصوير إلا لغة للتعبير وأسلوباً من أساليب الوصف
والإفضاء عن الشعور والعاطفة، فكل مصور درس أصول
التصوير وقواعده هو ككل إنسان تلقن قواعد الكلام وأصول
الصرف والنحو ليستطيع التخاطب بلغة سليمة متألقة، ولكن
على قدر انتشار اللغة سليمة صحيحة غير مشوبة باللحن لا نجد
كل متكلم أديباً ولا شاعراً، فكذلك ليس كل من تناول ريشة
الفن وأتقن مزج الألوان فناً تاماً وفقاً، وكذلك على قدر التفاوت
بين طبقات الأدباء والشعراء يتفاوت الفنانون مقدرة وعجزاً.
فلغة التصوير على ذلك ليست إلا أداة أو وسيلة لغاية
بعيدة يريد المصور أن يبلغها، ونحن إذ ننظر إلى الصورة يجب
أن نبحث أولاً عن هذه الغاية - ماذا يريد صانعها أن يقول.
فاذا لم نجد من وراء صورته فكرة أو غاية مفيدة فالصورة
لغو لا طائل تحته، إذ لكل صورة قصة يجب أن تقصها وإلا
فهى بكاء صماء أو هراء من القول وهذر مخطوط ومضيعة
للجهد والوقت باللغة ما بلغت أداة التعبير من إتقان. وأقل
ما نلتزمه في صورة من الصور أن نستخرج لها ميزة تميزها
وشخصية تسم بها. هل سجلت شيئاً جديداً كان خافياً علينا؟

الغريزة فالغريزة هي في الواقع التي تؤلف بين الرجال على الإعجاب بجمال المرأة أو هي على الأصح التي كانت منذ الزمن الأول ترغب الرجل في المرأة؛ فلما ارتقى وهذب من غرائزه وتسامى بها عن أن تكون مطلقة الحيوانية تغير إلى حد كبير نظره إلى المرأة فأصبح يحل جمالها لذاته مجرداً عن دافع الشهوة، وبعدت عن خياله تلك الصور التي كانت تجسمها الغريزة الجنسية وتمثلها الرغبة الحيوانية، فلم نعد نسمع شاعراً يتغنى بثقل الردفين وانقطاع الحصر وكثيب الرمل. ولم نعد نسمع قول بشار بن برد:

أو عضة في ذراعها ولها فوق ذراعي من عضها أثر
أو لمسة دون مرطها يدي الباب قد حال دونه الستر
ولم نعد نسمع تلك النوايسات الماجنة وما إليها من دلائل الاحساسات البهيمية، وإذا بنا تطرق قلوبنا هذه الأغاني الخالدة التي تسمو بأرواحنا، إذا بنا نسمع العقاد يقول:

أغلى جمالك في التواظر أنه عوض لشين في النفوس كثير
وأنا له منها المقادة أنه في الأرض رمز كالمحظور

وقوله: —

ان التعاطف بالأرواح بغيثنا وفي القلوب على الأرواح عنوان
وقوله: —

فحش في جوار الناس شخصاً مجسماً
وعش في فؤادي صورة تتخيل
فالغريزة هي الأصل في الإعجاب بشيء دون شيء، ولما تهذبت وارتقت استحال إلى ما نسميه نبلاً أو ذوقاً رفيعاً وإن بقيت للغرائز الأولى بعد نزعاتها.

ولكن هذا الذوق له فصول وأسس، وله قواعد وقوانين تضبطه وتحده، فلم يعد جمال الجسم الانساني صباحة وجه، وسطوع جبين، وامتلاء جسم أو نحافته، أو غير هذه الأوصاف من المعاني المطلقة، بل وضعت له مقاييس وأطوال - وإلى هنا يكون للذوق ضابط يحفظه في حدود مرسومة، ولكنه لا يخضع لها خضوعاً مطلقاً ولا يتكش بين تلك الأعلام والأوضاع الضيقة إذ أنه يكون بذلك جامداً كزاً ذا وجه واحد. ولكن ذلك الجود يتحرك ويحيى بما ينفع فيه من روح، وما ينفع فيه من سحر، فيتخذ صوراً متباينة مختلفة، وإن كانت كلها تدور في حدود هذه الأوضاع، ولكل وجه سيماء

الناس اليومية المادية، وذلك لا تتعلق نفسه ولا يحس في قلبه إلا بكل جليل الشأن. وبلي هذين من يعنى بتصوير الصغير من الأمور والتافه الحقيق كعجب الأطفال وأعمال المهرجين وما إلى ذلك ولا ينبغي أن تضيق هذه الحدود إلى أقصى تخومها فنحكم بمقتضاها حكماً قاطعاً لا نقض فيه، إذ أن الفنان النحيل قد يتناول موضوعاً يقل عن مستوى موضوعاته فيسبغ عليه من روحه ويضفي عليه من قدرته وبراعته، ولكن كثيراً ما يشرئب النقاش الصغير غير الموهوب والمشغول بحقيق الأمور إلى تقليد جليلها فلا يبلغ منه مبلغاً ولا يخرج عن الدائرة التي يدور فيها، وينتهي حيث ينبغي، بل أنه يكشف عن عجزه ويدل على ضعفه ولا يتمخض بعد الجهد الشاق والعناء العنيف عن غير ما تطيقه مؤهلاته وما تنتجه قريحته مثله، ومثل هذا النقاش يحسب غروره وحيا وطمعه عظيمة في الروح وعلوا في النفس

وشتان بين الاثنين أحدهما كالنحلة لا يغذيها إلا الرحيق ولا تهم أو تسمى إلا وراء الشذى الذكي والعبق النقي والعرف الندي، ولا يستويها إلا الزهر المنور والجو المعطر؛ والآخر كالزنبور الطنان يقع على الأقدار ويستطعم الأدران ويأكل الحشرات والديدان.

والنحلة تنتج رحيقاً من رحيق، والزنبور أذى وشراً. تلك رمز التضحية والغيرية، وهذا عنوان الأنانية والآثرة؛ تلك متواضعة خجولة تعمل في رصانة وسكون، وذلك مدع مغرور صخاب طنان بهرجت الطبيعة من ألوانه وعددت فيها للنميمة عليه والايقاع به أو لتفاديه

فلا تستصفرن من النحلة اندماج لونها وهدوئها؛ ولا يفرنك من الزنبور بروزه وطنينه.

وكذلك لا يفرنك من الصورة بهرجة الدعاية لها بل ابحت عن الغاية المحيدة وعن التعبير الصادق الجميل.

كثيراً ما يتفق الناس على أن هذه المرأة جميلة، وأن تلك دميعة، ويكادون لا يختلفون في حكمهم، فما الذي جمع بينهم على رأى واحد؟ قد يحتج بان هذه هي أذواقهم وهذه أمزجتهم وأنهم يرون أنها جميلة لأن هذا احساسهم فلا تطلب تمليلاً ولا تحليلاً، وفي الحق أن المرأة الجميلة تعجبنا لأول ما نراها لأن قلبنا يهفو إلى حسناتها، ونفسنا تنصب إلى جمالها، ولكننا نتفق في النزوع إلى جمالها والصبابة إليها بدافع من

ضربت المثل بجمال الجسم الانساني ممثلا في المرأة لأنها مركز اهتمام الرجل ، ولأن الاتفاق على مقياس الجمال فيها يكاد يكون مفروغا منه . وكلما بعد موضوع الحكم عن أن يكون ذا صلة بفرصة من الفرائز ، أو بعلاقة مباشرة بعاطفة فسيولوجية أو نفسية ، تعقد الموضوع ، وصعب الاتفاق على حكم واحد فيه ، واختلفت الأذواق : فهذا ذوق جميل يصدر حكما صائبا ، وذلك ذوق فاسد مضطرب الحكم . ولهذا السبب كان لا مناص من أن يوضع لكل شيء حدود يصدر الحكم على أساسها ، فالشجر والنبات ، والنهر والشلال ، والغدير والبحر ، والمحيط والجبل ، والسماء والسحاب ، والأبنية والعماير . لكل هذه المظاهر أصول وقواعد يؤدي الفن في حدودها ، وكانت هذه الأصول على ذلك ضابط الذوق إلى حد محدود ، فكان الذوق الجميل لم ينشأ نشأة لدنية ، بل هو في الحقيقة غاية الثقافة والتهديب ، وهو عند ما يقبل شيئا أو يرفضه يظهر لنا أنه أتى ذلك في التوبغيرسند واضح ، ولكن عمل الذوق في الحقيقة نتيجة طبيعية لما وعته النفس وكسبه العقل من قضايا مختلفة ومقدمات منطقية وتاريخ حافل من تجارب الحياة وليس من شأننا هنا أن نعدد الأصول التي تراعى في التعبير عن هذه المظاهر الطبيعية السالفة الذكر فلها مجال آخر نرجو أن يتاح لنا في المستقبل ، ولكنها هنا سنسبظ الشرائط التي يجب توفرها في الصورة ، بوجه عام ، وفي الفنان أيضا والتي يمكن بمقتضاها أن تصدر حكما أدنى للصواب فيما نشاهده من صور الفن وهذه الشرائط هي كما ذكرها جون راسكن:

(١) الصدق والحقيقة (٢) البساطة

(٣) نوع من الابهام السحري (٤) إيجاز التعبير

(٥) الجرأة (٦) السرعة

هذا ولكي يكون تقديرنا لجمال المظاهر الطبيعية أنم وأوفي يجب أن نجردها من النغمة وننظر لها نظرة خالصة للفن ذاته وللجمال ذاته . فعند ما نرى نهرا جميلا يجري بين شاطئين بسقت عليهما الأشجار وغطاهما بساط سندس من العشب يجب أن تقبل أذواقنا جمال هذا المنظر كما خططته يد الله بعيدا عن تدخل يد الإنسان في التحكم فيه والسيطرة على أجزائه — فنحن عن ذوقنا أنه أقيم هنا سد اعترض من النهر انسياء الجميل — وأن هناك آلة رافعة وضعت لتختلس من مائه

بضجيجها وصريرها ، وقامت على جانبه شوهاة كالقرحة في الجسم الغض . وتنق عنه أن هناك خطابا قويا يعمل فأسه في جذع شجرة ليسقطها وليأخذ خشبها ليصنع منه بابا أو نافذة . واليبوع إذ يتسلسل ماؤه على الحصى ويتدفق على الترى أجمل بما لو أحطناه بسور من البناء لتحصر مائه ، والسياح الحديدي حول مجموعة من الأشجار مشوه لجمالها ، والعصفور الطليق أجمل من العصفور الحبيس في قفص ضيق . وهكذا فإن القلب يحس إحساسا خالصا بجمال الطبيعة ويندمج فيها ويخفق لها لأن طبيعة الإحساس العاطفي المحض في القلب وهو تامورة الحياة في الجسم الانساني ، أجل وهو الذي يستجيب ويلبي كل شيء جميل حي

وإذا أصاب القلب مرض أو تعطلت وظيفته النيلة لسبب ما كان كدر صفاءه غضب أو احتياج أو حقد أو غيرها من الحالات التي تخرجه عن طبيعته انبتت علاقته بالحياة فلم يعد يستجيب لها ولا يحس بها إحساسا سليما صحيحا . وكذلك الحال عند ما نرى مظهر من مظاهر الطبيعة قد طرأ عليه ما يعطل من طبيعة الحياة فيه . فالزهرة النضرة يعجبنا منها رونقها واتساقها وزها. لونها ونورها وهي بذلك حبة سليمة ، وهي لحياتها جميلة غاية الجمال ، فإذا رأيناها ذاوية خبا رونقها ومالت إلى العدم ، والظلي رشيق الحركة وهو سليم صحيح ، فإذا أصيب في ساقه بعرج فهو سقيم ثقيل ، والطير جميل وهو قوى الجناح سليمة ، فإذا كسر جناحه فهو ضعيف ذليل — وكل هذه المخلوقات سعيدة ما دامت وافرة الحياة سليمة الوظائف وهي بذلك جميلة غاية الجمال

ولا ينبغي أن نقرن النظر للشيء الجميل بتحليله إلى عناصره وتعليل مظاهره فنبحث في أن ماء النهر يكون من عنصرى الهدروجين والأكسجين . وأن النهر ينحدر ماؤه بالجاذبية ، وأن الشجر يتمص بمجذوره من الأرض عناصر التغذية . وأنه يحيل ثاني أكسيد الكربون إلى أكسجين نهارا والعكس ليلا . فالنظرة إلى الجمال يجب أن تكون مجردة من جميع هذه العوامل وإلا طغى الفكر المحلل على الذوق السليم وسكتت العاطفة وقد تكلم العقل وانتقلنا إلى عالم مادي وبعدنا عن عالم الروح والكمال .